

المحاضرة العاشرة

اتجاه مقاومة الاستعمار الغربي في القرن
الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)



عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد
Deanship of E-Learning and Distance Education

[١]

جامعة الملك فيصل
King Faisal University



الصحوات الإسلامية :

لمصطلح " الصحوات الإسلامية " عدة معاني : فهو يطلق مثلاً على الحركات الإسلامية التي ظهرت في بعض بلدان العالم الإسلامي ، خاصة في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) ، التي قامت بهدف محاربة ما ساد تلك البلاد من سلوك وممارسات تتنافى مع جوهر الدين الإسلامي الحنيف ، وذلك عن طريق إعادة الدين إلى مكانته الأولى التي عاشها زمن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وزمن خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم جميعاً ، أي الرجوع إلى دين السلف الأول الخالي من البدع والضلالات .



عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد
Deanship of E-Learning and Distance Education

[٢]

جامعة الملك فيصل
King Faisal University



ولقد كانت إحدى تلك الحركات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية في نجد ، وكذلك الدعوة السنوسية التي اتخذت من برقة بلبيبا منطلقاً لها ، والثورة المهدية في السودان ، ويشمل مصطلح " الصحوات الإسلامية " إلى جانب هذه الحركات الثلاث ، فكرة " الجامعة الإسلامية " التي تزعم الدعوة إليها جمال الدين الأفغاني ، وساعده في نشرها صديقه وتلميذه المصلح الإسلامي محمد عبده ، وحمل لواءها من بعد ذلك الشيخ رشيد رضا ، صاحب مجلة " المنار " الإسلامية ، وأنصاره ممن ساروا على دربه السلفي .



واتسع مدلول مصطلح " الصحوات الإسلامية " ليشمل الحركات التحررية التي شهدتها بعض بلدان العالم الإسلامي ، الرامية للتخلص من السيطرة الاستعمارية المعادية للإسلام وأهله ، كما أصبح هذا المدلول يطلق على بعض المشروعات الوحدوية الإسلامية والعربية التي تعمل على جمع شمل المسلمين ، وتعزيز تضامنهم ، مثل منظمة المؤتمر الإسلامي ، ورابطة العالم الإسلامي ، وما تفرع عنهما من مؤسسات ثقافية ، واقتصادية ، وإعلامية .



وهناك من يرد بدايات هذه الصحوة إلى أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي - حيث كانت أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية الذي عاش وعاش دمار التتار في العالم الإسلامي ، فدعا إلى الرجوع إلى إسلام السلف الصالح الخالي من البدع والشوائب ، وإلى فتح باب الاجتهاد ، وترك طريق الفلاسفة والمتكلمين لأنها لا تتفق مع الروح السلفية.



١- الحركة السلفية في نجد :

نشأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي في نجد حيث انتشر المذهب الحنبلي بعد موت الإمام أحمد بن حنبل في عام ٢٤١ هـ في بلدة " العيينة " سنة ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م في أسرة علمية ميسورة الحال و" العيينة " قرية باليمامة غرب مدينة الرياض ، تتلمذ على أبيه ، وحفظ القرآن الكريم عندما بلغ العاشرة من عمره ، وأحاط في حلقة أبيه بكتب السلف ، وبخاصة بمؤلفات ابن تيمية، وقد تأثر بها ، وكان لشخصية ابن تيمية أثر واضح في تكوين شخصيته، ثم أثر الرحلات التي قام بها في طلب العلم ، فقد زار الحجاز حاجاً وشهد هناك مظاهر كثيرة للشرك من تعظيم للقبور ، واستغاثة بالموتى ، كما أنه تأثر بما شاهده في المسجد الحرام من حلقات طلاب العلم حول مشايخ يدرسون مختلف العلوم النافعة ، وبما لاحظته من وحدة إسلامية متجالية في مشاعر الحج ، وكانت هذه الانطباعات حافزاً له لمواصلة تعليمه ، ثم زار المدينة المنورة ورجع إلى بلده العيينة ، ولكنه سرعان ما رجع مرة أخرى إلى الحجاز لتلقي العلم على علمائه ، وهناك أدرك حاجة الأمة بعامة ، وحالة نجد والحجاز بخاصة للإصلاح ، ثم عاد إلى نجد ، وارتحل مرة أخرى إلى البصرة طلباً للعلم ، فدرس فيها الفقه والحديث على عدد من علمائها ،



وفي البصرة رأى الشيخ محمد كثيراً من الأمور التي كانت مخالفة للحق ، فاستنكر كل ذلك في مجالسه ، مما أثار عليه بعض العامة ، فأخرج من البصرة، وتوجه إلى الأحساء ، ثم إلى حريملاء ، وفيه أي " حريملاء " وضع كتابه " التوحيد الذي هو حق المولى على العبيد " وأعلن دعوته ، فحاولوا قتله ، فهجر " حريملاء " إلى بلدة " العيينة " حيث ناصره أميرها عثمان بن حمد بن عبدالله بن معمر ، فجاهر بدعوته ، وازداد أتباعه ، وظهر أمره لمساندة السلطة له ، وفي العيينة بدأ تطبيق مبادئ دعوته ، فقام هو وأتباعه بقطع الأشجار التي يتوسل بها الجهال ، وهدم القبة المبنية على قبر في الجبلية كان الناس يظنون أنه قبر زيد بن الخطاب رضي الله عنهم.....



وبعد إخراج الشيخ محمد من العيينة ، ذهب إلى الدرعية ، وهناك كان إئتلافه مع أميرها محمد بن سعود ، وتعاهدهما على نشر الدعوة ، وتطبيق مبادئها ، فكان قيام الدولة السعودية الأولى على منهاج هذه الدعوة السلفية .

ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا تنادي بمذهب جديد ، وإنما تنادي بإحياء الدين ، والدفاع عن السنة ، والوقوف في وجه الخارجين عليها ، والشيخ يجتهد برأيه..



.. وقد أقام دعوته على المبادئ التالية :

- ١- العودة بالإسلام إلى صفائه الأول ، وذلك بالرجوع إلى الكتاب والسنة في معالجة أمور الحياة .
- ٢- الدعوة إلى التوحيد ، وتحرير الذات الإنسانية من الاستعباد للبشر ، فلا إله إلا الله وحده ، والخلص من كل ما يتنافى مع التوحيد وكماله ، مثل التبرك بالأولياء ، والتمسح بالمشايخ ، والتقرب إلى الله بزيارة قبور الصالحين .
- ٣- إنكار تأويل القرآن ، والاهتمام بظاهر النص .
- ٤- فتح باب الجهاد ، وتحرير الفكر الإنساني من مذلة التقليد .



- ٥- الدعوة الصادقة للإسلام بالجهاد في سبيل الله ، أمراً بالمعروف أو إئتماً به ، ونهياً عن المنكر ، أو انتهاءً به ، ومن ثم فقد تعاهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الأمير محمد بن مسعود على الحرب ، وخاض معاركها .
- ومن ثم فإن أهم ما تهدف إليه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أفراد الله سبحانه بالعبادة ، ومحاربة الشرك بجميع أنواعه ..



وقد كان لهذه الدعوة آثار واضحة في عدد من بلدان العالم الإسلامي ، وكان لأثرها أسباب ، منها :

١- أن الدعوة قامت وترعرعت وقويت في أواسط الجزيرة العربية - بعيدة عن التحديات الخطيرة التي واجهها العالم الإسلامي كله من خلال النفوذ الاستعماري الزاحف .

٢- كما أن الدعوة انبعثت في الجزيرة العربية - مهد الإسلام - وأنها استهدفت كل المسلمين القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي قاصدين بيت الله الحرام .



وقد حرص الاستعمار - من ثم - على وأدائها والقضاء عليها ، فأوغر صدر الدولة العثمانية عليها ، وأوهمها أن فيها خطراً عليها وعلى نفوذها ، فأوعزت الدولة بدورها إلى محمد علي باشا في مصر بإسقاطها ، فجرد عليها الجيوش ، واستطاع القضاء على دولتها في الدرعية ، ولكنه لم يستطع القضاء على الدعوة وفكرها ، فاستطاعت الدعوة أن توسع مداها ، وتأثر بها دعاة سلفيون آخرون في الهند ، والعراق ، والشام ، ومصر ، والمغرب ، فكان من تلاميذها الألووسي الكبير في بغداد ، وجمال الدين القاسمي في الشام ، وخير الدين التونسي في تونس ، وأحمد بن عرفان الشهيد ، وصديق حسن خان في الهند ، وعثمان دن فوديو في أفريقيا ، وغيرهم ، وانبعثت منها حركات ودعوات أخرى ، كالسنوسية في الشمال الأفريقي ، والحركة المهدية في السودان .



- الحركة السنوسية في ليبيا :

هي إحدى التيارات الإصلاحية الإسلامية التي نشطت في أنحاء متعددة من العالم الإسلامي منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجري / الثامن عشر - التاسع عشر الميلادي ، بهدف القضاء على البدع ، والعودة بالإسلام إلى نقائه الأول ، مؤسسها هو محمد بن علي السنوسي المولود في إحدى قرى الجزائر في عام ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م ، والمتوفى في ليبيا عام ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩ م ، والسنوسية ليست مذهباً دينياً ، أو حركة سياسية قومية نشأت أصلاً لتحقيق أغراض سياسية ، أو مطالب قومية .



تأثر السنوسي بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إبان وجوده بمكة ، وكانت غايته هي العودة بالعقيدة الإسلامية إلى جوهرها الأصل ، وذلك عن طريق نشر الدعاة ، الذين كان يرى أن إنشاء " الزاوية " أمر ضروري لإعدادهم ، ولبث الدعوة ، لا سيما في البيئة الصحراوية ، خاصة وان السنوسية كانت قد اتخذت من الصحراء الليبية ميداناً لنشاطها .



وتتفق السنوسية في مبادئها مع كافة المبادئ التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، كالعودة بالإسلام إلى نقائه الأول ، والتركيز على الكتاب والسنة ، وفتح باب الاجتهاد ، وتنقية الدين مما علق به من ضلالات وبدع...



وقد استطاعت الدعوة السنوسية أن تنتشر في شمال أفريقيا ، وأجزاء من غربها ، وأن تنشر الإسلام بين القبائل الوثنية هناك عن طريق دعائها وزواياها المنبثة في كل مكان – والسنوسية امتداداً للدعوة السلفية وإن اختلفت في وسائل نشر مبادئها ، وقد تحولت السنوسية كليةً إلى مقاومة عسكرية مسلحة عندما دخلت إيطاليا إلى إقليم طرابلس الغرب في عام ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م .



واستطاعت السنوسية أن تحقق عدة نجاحات منها : إصلاح المجتمع البدوي الليبي ، حيث أوجدت في الصحراء مجتمعاً متحداً ومتعاوناً ، كما أنها أوجدت سلطة دينية تولت الإشراف على الفرد والجماعة في تلك الأصقاع الصحراوية ، ونشرت العلم والمعرفة الدينية في الصحراء عن طريق زواياها المتعددة ...



٣- الحركة المهدية في السودان

قامت هذه الحركة على يد مؤسسها محمد أحمد المهدي (١٨٤٤ - ١٨٨٥ م) الذي ولد في جزيرة " ليب " جنوب مدينة دنقلة ، لأسرة قبل إنها من " الأشراف " وقد حفظ القرآن في صغره في " خلوة " القرية ، ثم تجول في أنحاء السودان طلباً للعلم ، وتعددت اتصالاته برجال الدين السودانيين ، واصحاب الطرق الصوفية ، وكان لترحاله هذا دخوله في إحدى الطرق الصوفية ثم خروجه منها ، أكبر الأثر في الدعاية له ، كرجل عابد زاهد ، يتأفف عن أكل الحرام ، وقد ساعدته هذه السمعة الطيبة على تكوين جماعة جديدة تأتمر بأمره ، وتنفيذ إرشاداته ، كما أن تجواله ذاك مكنه من الاطلاع على أحوال المسلمين السيئة في شتى أنحاء السودان ، إضافة إلى ذلك فقد اطلع محمد أحمد المهدي في رحلاته تلك على أحوال البلاد السياسية السيئة ، الأمر الذي جعله يفكر في كيفية إصلاح أحوال أهل السودان الدينية والدنيوية ..



وقد اشتهر محمد أحمد بالزهد ، والورع والتقشف ، الأمر الذي دعاه إلى الانتقال ، والعيش في جزيرة نائية على النيل الأبيض – هي الجزيرة " أبا " بغرض الاختلاء والتعبد ، وربما لجمع الأتباع حوله استعداداً لبدء حركة تعمل على إصلاح أحوال المسلمين في السودان – الدينية والدنيوية ..



- وكانت تعاليمه تتلخص فيما يلي :
- ١ – العودة بالإسلام إلى ما كان عليه في أيامه الأولى ، بالاعتماد على الكتاب والسنة .
 - ٢ – التوحيد بين المذاهب السنية الأربعة ، والانفراد بمذهب اجتهادي خاص .
 - ٣ – حصر الطريق الموصل إلى الله في أمور هي :
 - أ- صلاة الجماعة . ج- امتثال أوامر الله ونواهيه .
 - ب – الجهاد في سبيل الله . د – الإكثار من كلمة التوحيد .
 - هـ - تلاوة القرآن . و – تلاوة الأوراد .



٤- تحريم زيارة قبور الأولياء ، وتحريم الرقص والغناء ، ومنع البكاء ، وراء الميت ، وإبطال السحر ، وكتابة الحجب ، وشرب الدخان والخمر .

٥- البساطة في الملبس ، والمأكل ، وحفلات الزواج .

٦- القضاء على الفساد السياسي في السودان ، وبقيّة الأقطار الإسلامية ، والإحاطة بالنظام القائم – أي النظام العثماني ، وقد كان لهذا الموقف المعادي للدولة العثمانية أكبر الأثر في القضاء على الحركة المهدية .



وقد نجح المهدي في تحرير السودان من الحكم التركي – المصري – كحكم محمد علي وأبنائه للسودان ، واستولى على العاصمة الخرطوم في عام ١٨٨٥ م ، وظلت الدولة المهدية قائمة على حكم السودان حتى قضت عليها حملة مصرية يقودها جنرال بريطاني هو " كتشنر " في عام ١٨٩٩ م ، والذي استطاع بسط الحكم الثنائي في السودان في أعقاب هزيمته للحركة المهدية ، وذلك هو الحكم المسمى بالحكم الانجليزي – المصري للسودان ، والذي كان في واقع الأمر حكماً إنجليزياً محضاً للسودان ، لكون مصر ذاتها واقعة حينئذ تحت الاحتلال البريطاني منذ القضاء على ثورة عرابي في سنة ١٨٨٢ م .



ثانياً : دور الأزهر والقرويين والزيتونة:

كان لهذه المؤسسات التعليمية الدينية دور في مجال الصحوات الإسلامية ، وهو دوراً كثيراً ما أغلفه وأهمله الكتاب والباحثون ، لذا سنلقي الضوء على الدور فيما يلي :



١- الجامع الأزهر :

من أقدم الجامعات الإسلامية التي عرفها العالم ، فقد ظل منذ إنشائه في عام ٣٥٩ هـ بمدينة القاهرة ، سنداً وحامياً للدين الإسلامي ، ولتراثه الفكري كله ، حتى في أحلك الظروف وأصعبها عندما تعرضت مصر والأمة الإسلامية للغزوات التننارية ، والصليبية الاستعمارية التي هددت كيان الأمة الإسلامية ، كما أنه ظل منارة علم وهداية يستضاء به في كل مكان من العالم الإسلامي ...



والأزهر الآن مؤسسة تعليمية حديثة شملها التطور فأصبحت فيه
كليات للطب ، والهندسة ، وبقية العلوم العصرية ، ولكنه ما زال
الحصن الأمين للدين الإسلامي ، القائم على تراثه ، وتعاليمه ،
والعامل على تطويرها ، وتحديثها ، ونشرها بين المسلمين .



٢- جامع القرويين :

يقع في مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ويرجع إليه الفضل في استمرار الوجود
الإسلامي في تلك الديار ، وفي حفظ اللغة العربية ، والتعاليم الإسلامية
ونشرها في سائر أطراف أفريقيا الغربية ، وقد أنشئ عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م
، وظل يؤدي دوره كمصدر إشعاع إسلامي دون انقطاع ، ولم يتعرض إلى
ما تعرض إليه الأزهر ، أو جامع الزيتونة ، وهو من أغنى المساجد
الإسلامية من حيث فسحة أراضيه ، وكثرة عقاراته ..



وقد لمعت أسماء بعض من تلقوا العلم في القرويين - من أمثال - ابن العربي ، وابن بطوطة ، وان خلدون ، وغيرهم ممن أثروا تراث الأمة الإسلامي الثقافي ، وإليه كانت تلك السفارات من المشرق ، ومن الأندلس وتونس وغيرها ، كسفارة صلاح الدين الأيوبي إلى المغرب ، يحضرون مجالس علمائه ، وينهلون من فيض علمهم ، وقد كان لعلمائه مشاركتهم في أحداث بلادهم السياسية والعسكرية ، فمثلاً كانت استجابة المرابطين لنجدة الأندلس نتيجة - ضمن عوامل أخرى - لفتوى أصدرها علماء جامع القرويين ..



٣- جامع الزيتونة :

أنشئ هذا الجامع في فترة مبكرة في عام ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ، وكان له الفضل الأول في إنشاء جامع وجامعة القرويين بفاس ، حيث أمدّها بالعلماء ، والمناهج والكتب - وكانت وكأنّها فرع له . ولم يلبث جامع الزيتونة أن تعثر في مسيرته في القرن الخامس الهجري على أثر تغلب عرب " بني هلال " ، وأصبح أثراً بعد عين ، الأمر الذي مكن جامع القرويين من الازدهار ، ورغماً عن نهضة جامعة الزيتونة من جديد ألا أنه عانى ثانية في القرن العاشر من تدخل الأسباب .



وجامع الزيتونة أحد المؤسسات التعليمية الإسلامية في الشمال الأفريقي ، وقد اقترن اسمه في مجال تعليم العلوم الدينية بجامع القيروان في تونس ، وجامع القرويين بفاس في المغرب الأقصى ، وبالجامع الأزهر في القاهرة .

والواقع أن بداية تأسيس مسجد الزيتونة كان في حوالي عام ٨٠ هـ / ٦٩٩ م على يد حسان بن النعمان والي أفريقية في عهد الدولة الأموية ، وقد أعاد بناءه من جديد عبيد الله الحجاب عام ١١٤ هـ / ٧٣٢ م عندما كان والياً على المغرب ، وربما سمي " الزيتونة " ليكون منارة إسلامية يستضيئ بنورها وعلمها المسلمون ، وكانت الدراسة فيه على نظام " الحلقات " المعروف ، حيث يتحلق الطلاب حول العلماء يتلقون عنهم المعارف الإسلامية ، مثل الفقه ، وعلوم القرآن واللغة إلخ ، وقد نظمت الدراسة فيه عام ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م ، فأصبح الحصول على شهادة اجتياز امتحان معين هي الشرط الأساس لأن يصبح العالم مدرساً فيه ، وأصبح الطالب المتخرج منه يمنح شهادة تسمى بشهادة " التطويع " .



ولجامع الزيتونة دور مماثل لدور الجامع الأزهر في مصر وذلك أن كليهما استطاع أن يقوم بدور فاعل في التصدي للفكر الشيعي ، وإن يعيد لمذهب أهل السنة والجماعة مكانته الحاسمة الفاصلة في العالم الإسلامي سواء في المشرق أو المغرب ، ففي عهد الفاطميين حاولت هذه الدولة نشر مذهب الشيعة الإسماعيلي بين أهل المغرب ، ومحو المذهب السني ، واستمر الأمر كذلك حتى عهد حاكم تونس المعز بن باديس رابع ملوك الدولة الصنهاجية ، الذي نبذ المذهب الشيعي في عام ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م ، وبايع الخليفة العباسي ، وأعاد تونس إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وقد كان لجامع الزيتونة دور رائد في تأصيل هذا المذهب ، فقد تولى علماءه مكافحة العقائد المخالفة له ، حتى عم مذهب الإمام مالك بن أنس الديار التونسية ، وهكذا فقد كان " الزيتونة " كما كان " الأزهر " وكما كان " القرويين " مساجد كالحصون حمت العقيدة ، ودافعت عنها ، وحفظتها في أوقات الأزمات والخطوب التي ألمت بالأمة الإسلامية.

